الباب الثالث

الحياة الاقتصادية

obeikandl.com

obeikandl.com

١ـ الزراعة والصناعة

كانت الأراضي العراقية تختلف في درجة الخصوبة وهذا يرجع باختلاف المناخ والظروف الطبيعية فالمنطقة الشمالية فيها من الرطوبة والأمطار، ما يكفي للأعمال الزراعية ، أما المنطقتان الوسطى والجنوبية، فالأمطار فيها قليلة إلى حد يجعلها ذات مناخ صحراوي وشبه صحراوي[١].

وإقليم العراق معرض للبرد الشديد الذي يؤثر على المحاصيل الزراعية، ففي فترة الخليفة القادر بالله سنة ٣٨٩هـ مرت بالعراق موجة برد قاسية، مصحوبة بسحب قائمة ورياح شديدة، أدت إلى موت آلاف النخيل في سواد بغداد، أما الذي نجا فأصبح ضعيفًا، بحيث لم يستعد قوته، ويثمر من جديد إلا بعد عدة سنين[٢]، وليست هذه وحدها أضرار البرد، فقد يترتب عليه أن يجمد الماء، كما حدث في عهد القادر بالله في شهر ذي الحجة سنة ٤١٧ هـ، عندما جمد الماء في السواقي ومجاري الماء في حافات دخلة، فعاق هذا البرد القاسي الناس عن الحركة، كما أن انعدام المطر في تلك الفترة وعدم فيضان نهري دجلة والفرات، كان له أثره على الزراعة بحيث لم يزرع في السواد إلا القليل[٣]، وأدت شدة البرد عام ٤١٩هـ إلى هلاك عد كبير من شجر النخيل، فانعدم الرطب، ولم يظهر في السوق إلا الرطب الذي كان يجلب من مناطق بعيدة مما ترتب عليه ارتفاع أسعاره، فبيع الرطب كل ثلاثة أرطال بدينار[٤].

---

(١) سعيد عبود السامرائي: موارد العراق الاقتصادية ص٣٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٢٠٦.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٨/ ٢٥.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٦.

وفي سنة ٤٢١هـ حدث في غزنة سيل عظيم، أهلك الزرع والماشية وغرق كثير من الناس بسببه، وأضر بالجسر الذي بناه عمرو بن الليث[١].

تعتمد الزراعة في المشرق بصورة رئيسة على مياه الأنهار التي تكثر في بلاد المشرق مثل نهر بلخ[٢]، ونهر سجستان ونهر الأهواز[٣]، ونهر زندروذ بأصبهان[٤]. أما سمرقند فهي كثير المياة وبها نهر جار، فليس في سكة ولا دار، إلا ويوجد بها ماء جار[٥].

وهناك مجاري الماء المبنية تحت الأرض التي توجد في مدن خراسان بنوع خاص مثل: قم ونيسابور أكبر مدن المشرق في ذلك العصر، وبها كثير من مجاري الماء المغطاة، بعضها يظهر في خارج المدينة، ويروي البساتين وبعضها الآخر يمد الدور بالماء[٦].

أما الزراعة في العراق فتعتمد بصورة رئيسة على نهري دجلة والفرات ورواسب هذين النهرين هي التي كونت هذه الأرض الغنية التي نسميها السواد[٧]، وهناك أنهار تجري بمدينة المنصور والكرخ من الجانب الغربي متفرعة من نهر عيسى، المتفرع

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٥.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٣٠١.
(٣) المقدسي: المصدر السابق ذكره ص١٩.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢٧١.
(٥) ياقوت الحموي: المصدر السابق ذكره ٥/ ١٢٣.
(٦) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٧٧.
(٧) د/ عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص١٠
والمقصود بالسواد سوادان: البصرة، وسواد الكوفة.

بدوره من نهر الفرات، وعلى جانبي هذا النهر قرى وضياع حتى إذا انتهى إلى المحول، تتفرع منه الأنهار التي كانت تخترق مدينة السلام[١].

ومن الواضح أن المياه التي تنساب في نهري دجلة والفرات، تختلف من فترة إلى أخرى، كم أن كميات هذه المياه تزداد أو تقل تبعًا لحالة الفيضان التي تسرد النهر[٢]، مثل ما حدث في عهد الخليفة القادر بالله سنة ٣٩٢هـ، عندما فاض نهر الفرات، فأدى ذلك إلى غرق بعض محلات الجانب الغربي من المدينة. وفي سنة٤٠١هـ زادت مياه دجلة وأدى ذلك إلى تسرب المياه إلى كثير من الدور التي تقع على الشاطي[٣]. ولذلك عنيت الخلافة العباسية بتنظيم وسائل الري بأن وضعت مقياسًا على نهر دجلة لمراقبة المياه في جميع المواسم وتسجيل قياسها[٤].

وجهت الخلافة العباسية اهتمامها إلى تنمية موارد الثروة الزراعية، فحفرت الترع والقنوات، وأقامت السدود والقناطر، وقد نالت الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات حظًّا وافرًا من العناية، فامتدت بها شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف، فتحسنت زراعتها، ولم تحرم المنطق الواقعة شرقي دجلة من هذه العناية حتى أصبح العراق مزدهرًا بالزراعة، كما أن الأقاليم الممتدة بين الكوفة والبصرة عمرت بالقرى والضياع[٥].

وقد نالت الزراعة في العهد البويهي اهتمامًا ملحوظًا، وأمر عضد الدولة البويهي

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ البغدادي ١/ ١١١-١١٢.
(٢) سعيد عبود السامرائي: موارد العراق الاقتصادية ص٤٠.
(٣) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٢٦.
(٤) الزبيدي: المرجع السابق ذكره ص١٢٤.
(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص١٢٩.

بحفر الأنهار التي اندرست، وأعد إصلاح البثوق وحفر الآبار، وبنى القنطرتين العتيقة والجديدة على الصراه[١].

كما أن شاشي الحاجب ويكنى أبا طاهر المشطب مولى شرف الدولة البويهي، بنى قنطرة الخندق والياسرية والزياتين، وسد بثق الخالص وحفر ذابة يحيل وساق الماء منها إلى مقابر قريش[٢]، وقام أبو الحسن علي بن محمد الكوكبي المعلم وزير بهاء الدولة في خلافة القادر بالله، بحفر الأنهار التي تخترق أسواق الكرخ[٣]، كذلك سد فخر الملك «محمد بن علي بن خلف أبو غالب» وزير الأمير بهاء الدولة البثوق وعمر سواد الكوفة وعمل الجسر ببغداد الذي كان سهلًا[٤].

كانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء في شرقي فارس متشعبة كل التشعب فقد جعل العباسيون لماء الري بمرو ديوانًا أطلقوا عليه اسم «ديوان الماء»[٥]، وهناك سد للماء أقيم جنوب مرو ووضع عليه أربعمائة غواص، يراعونه في ليلهم ونهارهم[٦].

أما الأقاليم شرق فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى، فكانت تروى بطريقة مبتكرة متقنة الصنع، ولم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار، وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض وهي تسقي ضياع البلد وتدور في محلاتها وتمد أهلها بماء

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ١١٤.
(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ٢٨٨.
(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ١٦٨.
(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٧/ ٢٨٦.
(٥) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص٦٣.
(٦) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٢٩.

الشرب[١]، ونلاحظ أن جميع السدود التي تقام على الأنهار تنقصها الصلابة؛ لأنها كانت تصنع من الخشب، أما خوزستان وفارس فكانت تتميز ببناء السدود الحجرية[٢] كانت نظم الزراعة متنوعة حتى أن كل وادٍ أو قرية يكاد ينفرد بنظام معين يتلاءم مع ظروفه الطبيعية فنلاحظ مثلًا في أردبيل وهي من أشهر مدن أذربيجان أن الأهالي يستخدمون لحراثة الأرض ثمان من البقر لكل محراث، ولكل اثنتين منها سائق ، على حين نجد أهالي بعض بلاد فارس لا يعتمدون على البقر في زراعتها مع كثرتها في بلادهم[٣].

اقتصرت وتركزت الزراعة في العراق على المناطق المحيطة بالأنهار وهي:

١- السواد.

٢- واسط.

٣- البطائح.

٤- البصرة.

٥- الموصل.

ومن المحاصيل الزراعية التي اشتهر بها العراق: الحنطة، والشعير، والأرز، وكانت منطقة السواد مركزًا هامًّا لزراعته، حتى أن عددًا كبيرًا من فلاحيها كانوا

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٣٧.

(٢) آدم متز: المرجع السابق ٢/ ٣٣١.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ص١٣٠.

obeikandl.com

يدفعون جزءًا من خراجهم أرزًا[١]، كذلك يزرع الأرز بكثرة في خوزستان[٢]، كما كان يزرع أيضًا بإقليم طبرستان، أما كرمان فتكثر بها الذرة[٣]، ويزرع السمسم والأرز والجوز، واللوز، والزبيب، والتين في بلخ[٤]،ويزرع النخيل في جرجان بكثرة[٥]، كما يزرع أيضًا في سجستان[٦]، وتكثر زراعة التمور في كرمان[٧].

واشتهرت واسط بزراعة قصب السكر وكانت أرض قصب فسميت واسط القصب[٨]، ويزرع قصب السكر بكثرة في كابل[٩]، واشتهر شمال فارس بجودة ما يزرع به من الفواكه وعلى الأخص البطيخ الذي كان يقدم ويحمل إلى العراق، وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد[١٠]، كما يزرع البطيخ في بعض مناطق العراق وله سوق ببغداد، تسمى «دار البطيخ»[١١].

أما مدينة بخارى وهي أعظم مدن ما وراء النهر، فقد اشتهرت بزراعة جميع

(١) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٣٠.
(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٠.
(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٠٢.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٣٢٣.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص٤١.
(٦) ياقوت الحموي:: معجم البلدان ٥/ ٣٧.
(٧) المقدسي: المصدر السابق ذكره ص٣٣.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٥٥.
(٩) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٠٨.
(١٠) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٣١.
(١١) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٣٢.

أنواع الفواكه[١]، وتزرع الفواكه أيضًا في خوارزم[٢]، وكان يزرع في أصبهان السفرجل والكمثرى والتفاح[٣]، ومن أشهر الفواكه التي تزرع بالعراق الكروم والبرتقال والنارنج[٤]، كذلك تجلى الاهتمام في بلاد العراق والمشرق بالبساتين التي كان يزرع بها الرياحين والأزهار على اختلاف أنواعها، ومن أشهر البلاد التي زخرت ببساتينها اليانعة بالعراق، الكوفة والبصرة وواسط وبغداد[٥].

وفي المشرق كثرت البساتين اليانعة والرياض الخضراء وخاصة في بلاد ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند[٦].

٢ـ الصناعة:

اشتهرت بعض مدن العراق والمشرق بكثير من الصناعات؛ منها ما يتعلق بأدوات الترف، وكانت تصنع لفائدة الطبقات الثرية، وهناك قليل من الحرف يعود نفعها على جميع السكان، كحياكة الملابس والحدادة، وصناعة الأدوات النحاسية، وتشير المصادر إلى أن الحياكة في مدينة السلام ازدهرت منذ القرن الثالث الهجري، ففي بغداد تصنع ثياب القز، والأقمشة القطنية والعمائم الرقيقة والمناديل بأنواعها وقد قامت بالموصل صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها[٧]، وهناك مدن في

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٨١.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٧٨.
(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٠.
(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٣١.
(٥) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٣٣.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٨٤.
(٧) الزبيدي: المرجع السابق ص١٤١.

obeikandl.com

العراق اشتهرت بصناعة المنسوجات مثل «الأبلة» التي تصنع بها ثياب الكتان الرقيقة، وكان يصنع بالنعمانية أكسية وثياب صوفية حسنة كما اشتهرت الكوفة بعمائم الخز[١].

كان الناس في العراق وبلاد المشرق الإسلامي، يعينون بصورة خاصة بالملابس فلكل طبقة منهم لباسها، ولكل صنف زيه وكل مناسبة تتطلب نوعًا خاصًّا من الملابس مما شجع الصناع على تحسين إنتاجهم والإكثار من أنواعه[٢]، فكان يصنع في مدينة بغداد الأزر[٣] ويصنع في نيسابور ثياب البيض والعمائم الشهجانية واشتهرت سمرقند بالديباج[٤]، أما جرجان فاشتهرت بثياب الحرير[٥]، وكانت أكبر مصانع نسج الحرير توجد في إقليم خوزستان[٦]، وكان بالمشرق مراكز خاصة لنسيج الكتان، وتعد مدينة كازرون من أكبر مراكز صناعته[٧] في حين أن الكتان كان من أندر الأشياء بتلك البلاد[٨].

انتشرت صناعة الورق في سمرقند وكان يعرف بالكاغد، واعتبرت مركزًا لصناعته وكان صاحب خزانة كتب الأمير البويهي بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٢٨.
(٢) د/ عبد العزيز الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص٨٨.
(٣) المقدسي: المصدر السابق ص١٢٨.
الأرز: قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات.
(٤) المقدسي: المصدر السابق ص٢٢٣.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص٤١.
(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٥٨.
(٧) آدم متز: المرجع السابق ٢/ ٣٥٤.
(٨) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٣.

ظريف عجيب من الورق السمرقندي والصيني[١].

وقد انتقلت صناعة الورق من سمرقند إلى العراق، فأنشئ أول مصنع للورق في بغداد في عهد الخليفة الرشيد[٢]، ثم تطورت صناعة الورق في القرنين الثالث والربع الهجريين، فأخذت بغداد تصدر بعض إنتاجها منه إلى الخارج[٣].

أما صناعة الصابون فقد كان لها محلة خاصة ببغداد في جانب الكرخ[٤]، وقد ازدهرت بفارس والكوفة، صناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنرجس، واختصت مدينة جور في فارس باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند[٥].

كان يصنع في بعض مدن العراق أنواع فاخرة من السجاد، بلغت ذروة الفن والإبداع، فكانت الزخارف البديعة والأشكال الهندسية تحلى قطع السجاد ويحيط بها عادة إطار من الكتابة الكوفية[٦] وقد اشتهرت فارس وبلاد ما وراء النهر بصناعة الفرش الصوفية وكان للبسط الفارسية التي تصنع في أصبهان خاصة المكانة الأولى منذ عهد بعيد[٧]، ومن الصناعات التي ازدهرت في العراق صناعة الخزف، وقد ابتكر الخزافون العراقيون الخزف ذي البريق المعدني، وهذا الابتكار جاء نتيجة تقدم

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٥٦.
(٢) آدم متز: المرجع السابق ٢/ ٣٦٥.
(٣) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٣٥٢.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٩.
(٥) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٤.
(٦) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٤٤.
(٧) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٤.

صناعة الخزف في العراق في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الدولة العباسية[١].

كذلك اشتهرت بعض مدن العراق بصناعة الزجاج ومن أهمها بغداد التي يرجع ظهور صناعة الزجاج بها إلى عهد الخليفة المعتصم الذي أنشأ بها عدة مصانع، وقد برع أهل بغداد في صنع الأواني الزجاجية، كما أقيمت بسامراء مصانع لصنع الزجاج، وقد نقل إليها الخليفة المعتصم الصناع من البصرة، وبلغ من تقدم صناعة الزجاج في بعض مدن العراق، أن تمكن الصناع في تلك البلاد من صناعة الزجاج الملون ولا يختلف هذا النوع عن البلور في صفاته، كما نقشوا على المصنوعات الزجاجية، وبخاصة الأقداح، زخارف تمثل بعض أنواع النبات والطيور والحيوانات فضلًا عن كتابات كوفية[٢].

٣ـ التجارة:

نشطت حركة التجارة في عدة مدن بالعراق والمشرق؛ منها: الكوفة التي اختطها سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ[٣]، وقد اشتهرت بتجارة الزيت المستخرجة من السمسم وبذور الكتان والقطن.

وكان للزياتين سوق كبير على مقربة من دار الإمارة[٤]، كما تفوقت في تجارة عمائم الخز[٥]، وقد نشطت حركة التجارة أيضًا في مدينة البصرة، وقد ساعد على نشاطها التجاري تعدد سواحلها وكانت البضائع ترد إليها من كافة أنحاء بلاد

(١) د/ محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي ص١٢٩.
(٢) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٤٧.
(٣) ابن قتيبة: المعارف ٢٤٦، الاصطخري: المسالك والممالك ص ٥٨.
(٤) الطبري: تاريخه ٧/ ١٥٤.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٢٨.

المشرق، ولها سوق كبير يقام في ثلاث نواح منها كل يوم، ففي الصباح يجري التبادل التجاري في سوق خزاعة، وفي الظهر في سوق عثمان وفي المغرب في سوق القداحين[١].

كان مركز التجارة الداخلية الأسواق، ويقيم كل طائفة من التجار في مكان معين منها، وكان التجار يمكثون في دكاكينهم إلى ما بعد الظهر، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء[٢]، وقد تعددت أسواق بغداد، فهناك سوق العروس وسوق الصفارين وسوق الأنماط وسوق الدقاقين[٣]، ومن نبين أسواق بغداد سوق الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال، آهلة عامرة الشوارع والدروب، وتمتد في شارع عظيم الدروب الطوال ينسب كل درب إلى أهل البلد الذين ينزلونه[٤].

أما السوق العظمى ببغداد فهي «الكرخ» ومن أسواق الكرخ المنفردة سوق البطيخ للفواكه، وسوق البزازين لبيع الأقمشة، وسوق الصرافين، وسوق دار القطن وسوق الوراقين[٥].

ولا شك أن نشاط وازدهار أسواق بغداد كان متناسبًا مع درجة تقدم الدولة العباسية حتى قيل: إنه لم يكون لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها، وأعلامها وعظم أقطارها وكثرة دورها ومنازلها وشعوبها ومحلاتها

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٤٢.
(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٨٥.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٥٥.
(٤) اليعقوبي: البلدان ص١٦.
(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ص١٤٣.

وأسواقها[١].

ومما ساعد على نشاط الحركة التجارية في أسواق بغداد، دور الضرب وظهور نظام المصارف[٢].

أما عن أسواق المشرق، فقد جرت العادة أن تجمع الدكاكين صنوفًا في مكان واحد، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة «كازرون»، وكانت مركز نسيج الكتان، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقًا عند مدينة جامع رام هرمز، وكانت غاية في الحُسن نظيفة قد بلطت وظللت وزوقت وجعل عليها دروب تغلق في كل ليلة، وهناك أيام مخصصة لبعض الأسواق فيوم الجمعة مخصص لسوق العسكر بخوزستان[٣]، وتوجد أسواق في فارس مثل: سوق البزازين على نسق سوق سجستان، وعلى هذا السوق أبواب تغلق كل ليلة[٤]، كذلك من المدن التي اشتهرت بأسواقها أصبهان[٥]، وكان بمدينة «مرسمندة» بخراسان مجمع وسوق في رأس كل شهر، يفد إليه الناس من الأماكن البعيدة[٦]، وفي سمرقند أسواق خاصة للتجارة[٧]، وفي بخارى سوق مشهورة تسمى سوق «ماخ» وكانت تُقام مرتين في العام لمدة يوم واحد[٨].

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٢.

(٢) حمدان عبد المجيد الكبيسي: أسواق بغداد ص٨ رسالة دكتوراه ١٩٧٧م.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٨٦.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٤٢٥.

(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٤٢.

(٦) آدم متز: المرجع السابق ذكره ٢/ ٣٢٤.

(٧) المقدسي: المصدر السابق ص٣٣.

(٨) النرشخي: تاريخ بخارى ص٣٨.

كانت حركة الملاحة على نهر دجلة كبيرة ، فتنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد مارة بالموصل، وكانت تستعمل لإخراج السفن من الماء على نهر دجلة طريقة خاصة وذلك أن الملاحين كانوا –وهم على ظهرها- يجذبون حبلًا بحريًّا على بكرة مثبتة على نقطة من الشاطئ ، ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائر منتظمة على ظهر السفينة[١]، ويصف المقدسي[٢] حركة الملاحة في شط دجلة قائلًا: «والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن ونرى لهم جلبة وضوضاء في ذلك الشط».

أما نهر الفرات فحركة الملاحة فيه نشطة للغاية، والبضائع التي تنقل على هذا النهر بكميات كبيرة، هي خشب البناء من جبال أرمينية، وزيت الزيتون من الشام ويتفرع من نهر الفرات أنهار أخرى، تجري فيها السفن، ومما يجعل سير السفن في هذه الأنهار يسيرًا أن مستوى نهر الفرات أعلى قليلًا من مستوى نهر دجلة ويجري على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب[٣].

ومن الأنهار الهامة في بغداد نهر عيسى الأعظم تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة، ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر[٤] ويعد أهل البصرة وأهل فارس أحسن تجارة الدولة الإسلامية، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التجارة.

وكان التجار المسلمون من العرب والفرس، يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها، بين الهند وأوربا، وقد أدى ذلك إلى تدفق المسلمين على

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٩٦-٣٩٩.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٢٤.
(٣) آدم متز: المرجع السابق ٢/ ٢٩٤.
(٤)اليعقوبي: البلدان ص١٨.

الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية، كما نشأت علاقات ودية وطيدة بين هؤلاء التجار وحكام تلك البلاد من الهنود الذين تولوا حمايتهم نظرًا للرخاء الذي ساد بلادهم، بسبب اشتغالهم بالتجارة فيها[١]، وكان للعرب جاليات تقيم بسواحل الهند وبعض مدنها في الوقت الذي تجاوز فيه جيوشهم حدود فارس، واستولت على بلاد السند، وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية في الملتان والدبيل[٢]، وكانت سفن فارس وبلاد العرب تمر بهذه البلاد في ذهابها إلى الهند والصين وفي عودتها[٣].

أما التجارة في المشرق فاشتهرت بنيسابور بتصدير ثياب البيض الشهجانية[٤] ومن بلخ كان يصدر الصابون والسمسم والأرز والجوز واللوز، والزبيب والتين والكبريت والرصاص، ومن سمرقند يصدر الديباج[٥].

أما مراكز التجارة الخارجية التي ارتبط بها العراق وأقام معها صلات تجارية وثيقة فهي:

١- **عدن**: وقد قال عنها المقدسي: أنها دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات[٦]، وقد اشتهرت عدن بالتجارة لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوبًا حتى أن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب ترسو

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٨١.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٤٧.

(٣) HEYD HIT DU COMMERCE DE LEVONT AU MOYEN AG TOME 1.P.3233.

(٤) يطلق على الثياب الرقيقة التي تجلب من مرو شاهجان.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٣٢٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٨٥.

عليها[١]، وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين أفريقيا وبلاد الغرب، ونقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر[٢].

٢- سيراف: تقع على الخليج الفارسي وتقصدها المراكب من جميع البلاد وتمر بها صادرات فارس وارداتها، وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها يقيمون في مساكن عالية تتكون من عدة طوابق مبنية من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق إفريقيا، كما أن تجار سيراف، وأصحاب سفنها كانوا يبالغون في الإنفاق على مبانيهم حتى إن أحدهم أنفق في بناء داره ثلاثين ألف دينار وكانت ملابس تجارها مع هذا الغنى بسيطة إلى درجة تبعث على العجب، فمنهم من يملك الأربعة آلاف درهم ومع ذلك لا يتميز في ملبسه عن أجيره[٣].

٣- عمان: كانت عمان إحدى المراكز الرئيسة التي تمر بها التجارة بين شرق أفريقيا والخليج الفارسي إلى العراق[٤].

٤- البصرة: وكانت ميناء العراق العظيم وأكبر مركز للتجارة البحرية، ويعد أهل البصرة من أنشط التجار في الدولة الإسلامية بصفة عامة، وأبعدهم صيتًا وشهرة فكانوا يجوبون بلادًا كثيرة وأصقاعًا نائية طلبًا للكسب والربح[٥].

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٩.
(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٤٣٦.
(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٥٣.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٩٠.
(٥) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٦٥.

أشهر الطرق البرية للعراق

كان بالعراق كثير من طرق التجارية البرية نذكر منها:

الطريق الممتد من الكوفة إلى البصرة والطريق بين واسط وسوق الأهواز[١]، وقد حرص الأمراء البويهيون في خلافة القادر بالله على حماية طرق العراق التجارية ضمانًا لازدهار التجارة[٢].

كانت صلة بغداد بالصين عبر الطريق البري ضعيفة إن لم تكن معدومة إذ إن الرحلة كانت طويل، وكثيرًا ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤدية إلى الصين كوسيلة للحد من التغلغل الأجنبي.

أما الطريق البحري فكان أسهل لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة، ومن هناك يسلكون الطريق البحري إلى الصين[٣].

وفي عام ٣٣١ هـ أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد الساماني في بخارى، ويطلب مصاهرته فرضي نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين، فكان ذلك مما يسر للتجار المسلمين الطريق إلى الصين[٤].

ومن الطرق التجارية الطريق الذي يمتد من غرب أوربا إلى المشرق، ويبدأ من

---

(١) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص٣٦٥.

(٢) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص١٨٥.

(٣)آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٧٣.

(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٥٠.

obeikandl.com

بلاد الأندلس إلى أن يصل إلى العراق مارًّا بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس مارًّا بالأهواز، ثم كرمان والهند والصين[١].

وهناك طريق تجاري يمتد من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ثم يتجه إلى مرو فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر، ومنها على الصين، ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية جهود السامانيين في إقرار الأمن في خراسان، وبلاد ما رواء النهر حتى أن قوافل التجار كانت تسير في أمن ودعة[٢].

وهناك الطريق التجاري الذي يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو فارس مارًّا بولاية سجستان وإلى الشمال من هذا الطريق، كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما، ومن هنا كانت القوافل تسير نحو خراسان غربًا وبخارى شمالًا[٣].

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٦.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ذكره ٣/ ٣٢٦.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٥٠.

obeikandl.com

٤ـ المصادر المالية

قامت موارد الدولة في العراق والمشرق في عهد الخليفة القادر بالله فيما يلي:

١ – الجزية.

٢ – الخراج.

٣– المكوس.

٤ – الضرائب.

١ – الجزية

هي عبارة عن مبلغ معين من المال، يوضع على أهل الذمة، ويسقط بالإسلام، وقد ثبتت بالقرآن الكريم لقوله تعالى: {قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}[التوبة: ٢٩].

فرضت الجزية في عهد الخليفة القادر بالله العباسي على أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وبلغ مقدار الجزية في مدينة بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري مائة وستين ألف درهم، ويدل هذا الرقم على أنه كان ببغداد نحوًا من خمسة عشر ألفًا من أهل الذمة، فإذا أسقطنا منهم ألف يهودي «عدد اليهود في مدينة بغداد» نجد أن هناك حوالي أربعين أو خمسين ألف نصراني في مدينة بغداد يدفعون الجزية وإلى جانب هذا العدد من النصارى في مدينة بغداد، كان هناك في مدينتي

الرها وتكريت كثير من النصارى[١].

أما اليهود الذين يدفعون الجزية في العراق والمشرق، فقد كثر وجودهم في المدن التالية: الحلة، والكوفة، والبصرة، وهمذان، وأصفهان، وشيراز وغزنة، وسمرقند.

كان أهل الذمة ثلاث طبقات تدفع الدنيا منها انثي عشر درهمًا، والوسطى أربعة وعشرين، والعليا ثمانية وأربعين درهمًا في السنة أو دينارًا ودينارين وثلاثة دنانير في البلاد التي عملتها الذهب وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع[٢].

كانت الجزية تؤخذ على أقساط، تبلغ أحيانًا ستة أو خمسة وأحيانًا أربعة أو ثلاثة أو اثنين، وقد فرضت في العراق أول الأمر في كل شهر؛ وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون مرتباتهم في كل شهر، ولكن في عام ٣٦٦هـ، وقبل خلافة القادر بحوالي خمسة عشر سنة تغير نظام دفع الجزية، فأمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في المحرم من كل سنة، وبحسب منازلهم وإلا تؤخذ من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم؛ ولا من ذوي سن عالية، ولا ذوي العاهات ولا من فقير معدم، ولا من الرهبان في الأديرة، وقد جرت العادة بأن يعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها، وقد راعى الحكام المسلمون الرفق والإنصاف في جباية الجزية من أهل الذمة، وتقضي القاعدة الفقهية فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعها بأنه «لا يضرب أحد من أهل الذمة لحملهم على أدائها..» ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى

(١)آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٨٤.

(٢)آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٩٦.

يؤدوا ما عليهم[١].

٢- الخراج

هو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة، وأبقاها الخليفة في أيدي أصحابها ووقفها على مصالح المسلمين[٢]، كما يؤخذ أيضًا من الأرض التي فتحها المسلمون سلمًا وتركوها في يد أهلها[٣].

أما تقدير الخراج فإنه يعود إلى كمية المحصول ومساحة الأرض نوع الزرع يقول الماوردي: «أن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج، ونقصانه، أحدها: يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها، أو رداءة يقل بيعها ريعها، والثاني: يختص بالزرع من اختلاف أنواع من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه، والثالث: يختص بالسقي والشرب، ومن الناس من اعتبر شرطًا رابعًا، وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها»[٤].

اقتدى الخلفاء العباسيون بالفرس في جباية الخراج، إبان النوروز غير أن الفرس كانوا يكسبون السنين فيزيدون يومًا في كل أربع سنين، فلما أبطل الإسلام كبس السنين، نشأ عن ذلك أن حل ميعاد جباية الخراج قبل نضج الزرع، فلذلك أخر المتوكل جباية الخراج سنة ٢٤٣هـ سبعة عشر يومًا من حزيران حتى يتمشى ذلك مع

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ١٠٩-١١٠.
(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١١٠.
(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص٥٥.
(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٤٣.

مصلحة الزارعين وسار الخليفة المعتضد على سياسته في تأخير النوروز[١].

وقد زاد الخراج في عهد المعتضد في العراق وبلاد الفرس لاهتمامه بنظام الري، وحفر القنوات، ورعاية الجسور، ولم يرتفع السواد لأحد بعد عمر رضي الله عنه بمثل ما ارتفع له إلا المعتضد بالله فإن أبا العباس أحمد بن محمد بن الفرات رفعه في أيامه ثلاثمائة ألف وأربعين ألف كرًا شعيرًا، وحصل من الخراج وأبواب المال أكثر من ألف ألف دينار[٢].

أما مال الخراج والضياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان –بعد إسقاط النفقات– فكان يحمل جزء منه إلى بيت المال العام.

وجزء إلى بيت المال الخاص، وينفق منه على متطلبات البلاد التي أخذ منها الخراج[٣]، وقد ساد في وقت الخليفة القادر بالله نظامان لجباية الخراج:

١ – نظام المقاسمة

٢ – نظام الالتزام.

ففي النظام الأول يفرض الخراج: على حسب كمية الغلة ويحصل عينًا، أما في نظام الالتزام أو الإقطاع، فكان الخراج الذي يؤدى من الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء.

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص١١٠-١١١.

(٢) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص٢٠٩.

(٣)آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢٣٠.

obeikandl.com

كان هناك نوعان من الإقطاع: الإقطاع المدني، والإقطاع العسكري، ويشمل:

النوع الأول الأراضي المقطعة للملتزمين، وكانت أراضيهم تعود إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عندما يحل بها الخراب، وقد شاع منذ مستهل القرن الرابع الهجري منح الموظفين إقطاعات مدنية بدلًا من الرواتب، ولما استأثر بنو بويه بالسلطة في العراق صاروا يمنحون الوزراء إقطاعًا يقوم مقام الراتب يبلغ إيراده ٥٠.٠٠٠ دينار سنويًّا.

أما الإقطاع العسكري فكان يمنح لقواد الأتراك وغيرهم من الجند، وكان الوزراء هم الذي يحددون خروج هذه الإقطاعات بأنفسهم، وأصبح هذا مجالًا لقبول الرشوة والهدايا، حتى يحددوا لها خراجًا مناسبًا، وقد ازدادت الإقطاعات العسكرية في عهد أمراء بني بويه، ويرجع السبب في ذلك على قلة خبرة البويهيين في الإدارية واضطراب الجند، وهذه الإقطاعات تعطى للقواد والجند بدلًا من المرتبات[١].

٣- المكوس

هي عبارة عن ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد وبمعنى آخر هي الرسوم الجمركية التي يطلق عليها «مراصد المكس» وتعتبر موردًا هامًّا من موارد الدخل للدولة[٢].

كانت تفرض ضرائب المكس على البضائع المنقول من ناحية إلى أخرى برًّا أو

(١) د/ محمد جمال الدين سرور:: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص١١٢-١١٣.
(٢)آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢٢٣.

نهرًا، وقد أنشئت لجبايتها دور للمكوس في أماكن مختلفة وخاصة على ضفاف الأنهار، وكان يمد جبل بين ضفتي النهر لمنع مرور السفن قبل أن تجبى منها الضريبة المقررة[١].

وفي سنة ٣٧٥هـ في عهد صمصام الدولة كان المكس أن يؤخذ على الثياب الإبريسميات والقطنيات التي تنسج ببغداد بأن يجعل عليها ضريبة العشر لكن الناس ثاروا على هذا الوضع فأعفاهم من ذلك[٢]، وكانت المكوس تؤخذ بالعراق على البضائع في داخل البلاد، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام ٣٠٠هـ موضعات تأخذ الحكومة عندها المكوس على البضائع[٣].

أما في المشرق فلم تفرض المكوس على البضائع إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ولم ينفرد البويهيون وحدهم بفرض المكوس، ففي سنة ٣٨١هـ فرض خلف بن أحمد حاكم سجستان رسومًا على بضائع وأرباح التجار[٤]، وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية وهي القسم التجاري في أصفهان ثلاثون درهمًا[٥].

٤- الضرائب

كان دخل الدولة عن طريق الضرائب كثيرًا حيث كانت تؤخذ الضرائب من إقليم خراسان الذي خضع في القرن الثالث والرابع لأمراء كثيرين في مقدمتهم

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١١٩.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٧٨، أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ١١٧.
(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٤٠٢.
(٤) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ٢٨٧.
(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٤١.

السامانيون والبويهيون.

أما فارس فكانت تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير، وفي ذلك يقول المقدسي[١]: «قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم، وأثقلهم خراجًا وأذلهم نفوسًا وهم لم يعرفوا عدلًا قطُّ».

وهناك ضرائب تُفرض على تجار أهل الذمة المقيمين بالبلاد الإسلامية وتبلغ ١/ ٢٠ من قيمة بضائعهم، وتجبى مرة في السنة متى تجاوزت قيمة البضائع مائتي درهم.

والضرائب التي تفرض على تجار أهل الذمة القادمين من خارج البلاد الإسلامية، وتبلغ عُشر قيمة بضائعهم إن زادت القيمة على مائتي درهم، كذلك فرضت الضرائب على الدور والحوانيت والأسواق، ويطلق على هذا النوع من الضرائب مستغلات[٢]، وقد فرضت في سنة ٤٢١هـ في البصرة ضرائب جديدة، ففرض على سوق الدقيق ومقالي الباذنجان وسميريات المشارع، ودلالة ما يباع من الأمتعة وأجر الحمالين الذين يرفعون التمر إلى السفن[٣].

وهناك ضرائب فرضها عضد الدولة على أهل العراق في بيع الدواب: كالخيل والحمير والجمال أشار إليها ابن الأثير[٤] في قوله: «أحدثت في آخر أيامه رسوم جائزة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة، وزاد على ما تقدمن

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٤٤٨.
(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١١٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥١.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١١٥.

فمنع عمل الثلج والقز وجعلها متجرًا خاصًّا».

وفي سنة ٣٨١هـ فرض الوزير أبو نصر سابور ضريبة عشر الثمن على المنسوجات الحريرية والقطنية المصنوعة في مدينة بغداد وقد ثار ضده كثير من الأفراد، لكنه أصر على فرض هذه الضريبة وفي ذلك يقول الصابئ[١]: «إن هذا الرسم ثبت ورتبت في جبايته وينظرون ومتولون، وأفرد له ديوان في دار البركة، ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويحمل، واستمرت الحال على ذلك إلى آخر أيام عميد الجيوش سنة ٣٩٠هـ، ثم أسقطه وأزال رسمه».

وهناك ضرائب فرضها أمراء بني بويه مثل ضريبة الطواحين يقول أبو شجاع: إن عضد الدولة أدخل يده في جميع الأرجاء والطواحين وجبا ارتفاعها وجعل لأهلها شيئًا منه، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه فأزال صمصام الدولة بعده كان قد قرر على الأرحاء والطواحين وأجرى الناس على رسومهم القديمة وأطلق لارتفاع للملاك[٢].

كانت الأموال التي تأتي من المصادر المالية التي سبق ذكرها تنفق على مصالح الدولة فيما يلي:

١- الأرزاق والرواتب.

٢- نفقات الحروب.

٣- نفقات إصلاح مرافق الدولة.

---

(١) الصابئ: تاريخه ص٤٦٨.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ٧٧-٧٨.

٤- العطايا والمنح.

١- الأرزاق والرواتب

كان جند الدولة والعمال والولاة وغيرهم من الموظفين يتقاضون أرزاقًا ومرتبات من بيت المال تصرف لهم بانتظام مقابل الأعمال التي يقومون بها، وأحيانًا كان الجند يتقاضون عطاءً إضافيًّا في المناسبات الهامة، كتولية خليفة أو عند خطر يهدد الدولة، أو إخماد ثورة أخلت بأمنها[١]، وإذا لم تدفع الرواتب للجند يقومون بالثورات، مثل ما حدث عند تولية الخليفة القادر بالله الخلافة، حيث شغب الديلم ببغداد، وامتنعوا عن مبايعة الخليفة فأرضاهم بهاء الدولة بالأموال[٢]، كذلك ثار الجند مرة أخرى سنة ٣٨٣هـ، بسبب فساد السعر وغلائه وتأخر دفع رواتبهم، ونهبوا دار الوزير أبي نصر سابور[٣]، ولم تكن الرواتب تصرف في مواعيد واحدة في أنحاء الدولة العباسية، ففي خراسان كان بعض الجند يصرفون مرتباتهم مرتين في السنة، على حين كانت هناك فرق أخرى تُصرف أرزاقها ثلاث وأربع مرات في السنة، وكان هذا الوضع موجودًا في العراق في بعض الأحيان، وكان يطلق على أرزاق الجند في خراسان «الأطماع» وفي العراق «الأرزاق»[٤].

٢- نفقات الحروب

اهتمَّ الخلفاء بتجهيز جيوشهم وأنفقوا كثيرًا من الأموال في سبيل تزويدها

(١) محمد توفيق خفاجي: تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس ص٢٤٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٤٨.
(٣) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ٢٥٠.
(٤) محمد توفيق خفاجي: تطور النظم الإدارية والمالية في بلادا لعراق والفرس ص٢٤٢.

بالمعدات الحربية، كما أنشئوا الثغور والحصون، وكان الخليفة لا يبخل بالمال على الجيش، من أجل حماية الإمارات الخاضعة لخلافته، فلو حدث تمرد في إحدى هذه الإمارات بادر الخليفة بإرسال الجيش لإخماده، فلما ولي أمير بني عقيل «أبو الذواد محمد بن المسيب» الموصل، بعث الأمير البويهي بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ أبا جعفر الحجاج بن هرمز بعسكر لمحاربته وزوَّده بالمال(١).

كذلك عندما خطب الأمير العقيلي قرواش سنة ٤٠١هـ للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في الموصل والأنبار والكوفة والمدائن(٢).

طلب الخليفة القادر بالله من بهاء الدولة محاربة قرواش، فسير بهاء الدولة إليه عميد الجيوش بعد أن زوَّده بالمال وقدره مائة ألف دينار(٣)، وفي المشرق كان السلطان محمود الغزنوي يستفيد من الأموال التي يحصل عليها من غزواته للهند في حروبه القادمة(٤).

٣- نفقات إصلاح مرافق الدولة

عنى الخلفاء العباسيون عنايةً كبيرةً بمرافق الدولة فرصدوا الأموال للإنفاق منها على حفر الترع وإقامة الجسور وبناء المدن، وفي عهد الخليفة القادر بالله اهتم الخليفة والأمير البويهي والوزراء على حدٍّ سواء بمرافق الدولة، فقد أحصيت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٧.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٣١١.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٣.
(٤) ابن كثير: المصدر السابق ذكره ١١/ ٣٣٠.

الحمامات في أيام بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ فبلغت ألفًا وخمسمائة حمام[١]، وفي سنة ٤٠٢هـ أمر القادر بالله بعمارة مسجد الكف وتجديد أبنيته[٢]، وفي نفس السنة هدم فخر الملك وزير الأمير البويهي بهاء الدولة الدار المعزية وجدد أبنيتها وأنفق على إصلاحها الكثير من المال[٣].

٤ - العطايا والمنح

دأب العباسيون منذ قيام دولتهم على منح أنصارهم وعماله الكثير من المنح والعطايا من الأموال والهدايا، فقد بعث الخليفة القادر بالله إلى أمير بني عقيل قرواش بهدية مقدارها ٣٠ ألف دينار عندما أعاد الخطبة للعباسيين[٤]، كما أنعم الخليفة القادر بالله على محمود الغزنوي بالخلع الخليفية سنة ٤٠٤هـ مكافأة له على فتوحاته في الهند ونشره الإسلام هناك[٥]. كذلك كان السامانيون يبذلون المنح والعطايا للعلماء والأدباء والشعراء[٦].

وقد نهج الغزنويون فيما بعد نهجهم في تشجيع العلماء والأدباء، خاصةً في عهد السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود اللذين أنفقا على العلوم والآداب الشيء الكثير من المال وأجزلا العطاء لكل من نبغ فيها[٧].

---

(١) الصابي رسوم دار الخلافة ص٢٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٢٥٦.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٧/ ٢٥٧.

(٤) خاشع عيادة المعاضيدي: دولة بني عقيل في الموصل ص٥٤-٥٥ رسالة ماجستير.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٥٢.

(٦) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص١٠٣.

(٧) د/ عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص٩٧.

obeikandl.com

اهتمت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بتحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها ومن ثَمَّ أقامت بيتًا للمال يتولى صيانته.

كان هناك ديوانان لبيت المال أحدها: ديوان بيت المال العام، وهو بمثابة خزانة الدولة التي يثبت في سجلاتها أصول الأموال العامة التي تحصل عليها الدولة.

أما بيت مال الخاصة فهو خزانة الخليفة، غير أن تطور الأحوال المادية أدى إلى تعاون بيت المال وبيت مال الخاصة في نفقات الدولة[١]، ويحمل إلى بيت مال الخاصة مال الخراج والضياع الذي يؤخذ من أعمال فارس وكرمان والمال المصادر من الوزراء المعزولين والكتاب والعمال[٢].

وقد ظهر في العهد البويهي ديوانان: أحدهما: ديوان الخليفة العباسي، والآخر: ديوان الأمير البويهي، وكان ديوان الخليفة يتولى رئاسته كاتب الخليفة العباسي الذي اقتصرت أعماله على إدارة إقطاعات الخليفة والإشراف على ما يرد إلى بيت المال من الأموال.

أما ديوان الأمير البويهي فقد تقلد رئاسته كاتب الأمير، ولما صار الوزراء يعينون من قبل البويهيين أصبح وزير البويهي يتقلد رئاسة الديوان[٣].

لم تنعم بلاد العراق والمشرق بالاستقرار الاقتصادي فقد ضجَّ الناس من غلاء الأسعار ففي سنة ٣٨٢هـ بيع الرطل من الخبز بأربعين درهمًا[٤].

---

(١) محمد توفيق خفاجي تطور النظم الإدارية والمالية في بلادا لعراق والفرس ص٢٦١.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٢٢.

(٣) د/ الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص٨٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ١٦٨.

الكر: اثنا عشر وسق والوسق ستون صاعًا.

وفي السنة التالية بيع كر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم[١]، كما تعرضت خراسان لأزمة غلاء شديد عام ٤٠١ هـ انعدم فيها القوت[٢]، وقد أدى تفشي الغلاء على حمل المسئولين في الدولة على وضع حد ارتفاع أسعار السلع، ففي سنة ٣٩٠هـ وفي عهد الأمير البويهي بهاء الدولة ظهرت محاولات لإصلاح الفساد الذي تطرق إلى النظام المالي في الدولة، وكان رائدها الوزير أبو علي الحسن بن أستاذ هرمز الملقب بعميد الجيوش، فنظر في الجرائد «دفترارزاق الجيش في الديوان»، وقسَّم الناس إلى طبقات حسن حالتهم المادية ورفع كثيرًا من الضرائب الجائرة ونظم مواعيد جباية الأقساط المستحقة على المزارعين، غير أن هذه الإصلاحات كانت فردية تعتمد على رغبة الأمير أو الوالي، وتزول بموته في أغلب الأحيان[٣].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٩٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٢١٤.

(٣) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص٢٣٢.

openkandl.com